

Başvuru: 22.11.2021

Kabul: 31.12.2021

OnlineFirst: 31.12.2021

DOI: <http://dx.doi.org/10.37344/talim.2022.23>

Copyright @ 2021 • ÖNDER

<https://dergipark.org.tr/tr/pub/talim>

e-ISSN: 2630-5887

Aralık 2021 • 5(2) • 143-156

المراكز التعليمية على مذهب المالكي في غرب إفريقيا ” القرن السابع الهجري *

*Mahamadou Kamissoko**

الخلاصة

من المعروف أن الثقافة والحضارة الإسلامية في إفريقيا بشكل عام وغرب إفريقيا بشكل خاص لها جذور تاريخية قديمة، إذ بدأت الحركات الاجتماعية والثقافية على أوسع النطاق منذ فترة إمبراطورية غانا (300-1100) وإمبراطورية مالي (1235-1670)م وإمبراطورية صونغاي (1464-1591)م خاصة في مجال التعليم والتربية تنمية ملكة الفقهية المالكي، وتجارة الذهب والملح في المنطقة. ومع تطور الأنشطة الاجتماعية والثقافية تم إنشاء المراكز والمؤسسات التعليمية والتجارية الكتاتيب والمساجد والمدارس الابتدائية وغيرها في مناطق تنبكت، جيني وغاو...

وخلال هذه الدراسة توصلنا إلى أن من نتائج هذه الأنشطة التعليمية، انتشر التعليم الديني على العموم والفقه المالكي على الخصوص في كل منطقة من مناطق غرب إفريقيا، وذلك بفضل جهود كبار العلماء والملوك والمصلحين.. أضف إلى ذلك نتيجة لتطور العلاقات العلمية والسياسية بين العلماء والسلاطين في شمال إفريقيا كالمغرب ومصر وتونس وبين غرب إفريقيا. والتعليم الذي قدمته المدارس المالكية وغيرها من المؤسسات في المغرب العربي، فأصبح التربية والتعليم أنشطة رئيسية ذات الصدارة في كل مناطق غرب إفريقيا. واتضح من خلال هذه الدراسة بأن هناك سبب آخر لانتشار المذهب المالكي في هذه المنطقة، وهو كونه المذهب المفضل والمختار من قبل العلماء، الملوك والشعب حتى العوام منهم كانوا يفتخرون ويعتزون بانتمائهم إلى هذا المذهب.

ولقد لعب بعض الملوك والحكام في مملكة غانا وما بعدها من الممالك دورا بارزا وأسهموا اسهامات كبيرة في نشر المذهب من خلال دعمهم للعلماء في تدريس الكتب المالكية في المدارس والمساجد والكتاتيب، كما اعتمدوا في الفتوى والقضاء على هذا المذهب واعتبروه المذهب الرسمي للدولة.

وكان للعلماء مكانة عظيمة في مجتمعهم حيث احترمتهم الملوك والشعب ونالوا منهم العطايا والتبجيل والتقدير. وبفضل هذه الأنشطة التربوية والتعليمية وكذلك العلاقات الخارجية التي أقيمت بين المغرب وغرب إفريقيا عرفت المراكز التعليمية في غرب إفريقيا وأصبحت كبيرة ومشهورة وما زالت آثارها موجودة إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية

غرب إفريقيا، المراكز التعليمية، المذهب المالكي، التعاليم، الدين

* Bu makale, Prof. Dr. Cemal Tosun'un danışmanlığında hazırlanan "Batı Afrika'da Maliki Mezhebinde Din Eğitiminin Gelişimi" başlıklı Yüksek Lisans tezinden üretilmiştir.

* Doktora öğrencisi, Ankara Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Din Eğitimi Bilim Dalı, mkamissoko222@gmail.com, ORCID: 0000-0002-8525-5277

Batı Afrika'da Maliki Mezhebinde Din Eğitiminin Gelişimi

Öz

Gana İmparatorluğu (300-1100), Mali İmparatorluğu (1235) ve Songay İmparatorluğu ve (1464-1591) döneminden bu yana sosyal ve kültürel hareketler geniş bir eğitim ve öğretim faaliyetleriyle doluydu. Genel olarak Afrika ve özel olarak Batı Afrika'daki İslam kültür ve medeniyetinin eski tarihi kökleri olduğu bilinmektedir. Özellikle eğitim alanında Maliki fıkıh alanındaki gelişimi ve bölgedeki altın ve tuz ticareti Sosyal ve kültürel faaliyetlerin gelişmesiyle birlikte Tinbüktü, Ceney ve Gao bölgelerinde eğitim ve ticaret merkezleri ve kurumları, camiler, medreseler ve diğer eğitim kurumları kurulmuştur.

Bu çalışma sırasında, bu eğitim faaliyetlerinin sonuçlarından, genel olarak din eğitiminin ve özel olarak Maliki fıkının, kıdemli ve büyük âlimlerin, kralların ve reformcuların çabaları sayesinde Batı Afrika'nın her bölgesine yayıldığı sonucuna varmıştır. Bu, Fas, Mısır, Tunus gibi Kuzey Afrika'da ve Batı Afrika arasında alimler ve padişahlar arasındaki bilimsel ve siyasi ilişkilerin gelişmesinin bir sonucu olarak ortaya konulmuştur. Mağrip'teki Maliki okulları ve diğer kurumlar tarafından verilen eğitim, Batı Afrika'nın tüm bölgelerinde ön plana çıkan ana faaliyetler haline gelmiştir.

Maliki mezhebinin bu bölgede yayılmasının bir başka sebebinin de, âlimler tarafından tercih edilen ve seçilmiş bir mezhep olması olduğu bu çalışma ile ortaya çıkmıştır. Krallar ve toplum hatta aralarındaki sıradan insanlar bile gururlu ve gururlandırılmışlardı. Onların bu mezheple olan bağları Memlûklerden Gana Krallığı ve ötesindeki bazı kral ve hükümdarlar, okullarda, camilerde ve medreselerde Maliki kitaplarının öğretilmesinde âlimlere destek vererek doktrinin (mezhebin) yayılmasında önemli bir rol oynamışlardır ve büyük katkılarda bulunmuşlardır. Fetvada kabul edilmiş ve bu mezhebin sabit hale getirmek için devletin resmi mezhebi haline getirerek kabul edilmiştir.

Alimler, kralların ve halkın onlara saygı duyduğu ve onlardan hediyeler, hürmet ve takdir aldığı toplumlarında büyük bir konuma sahip olmuşlar. Eğitim ve öğretim faaliyetleri ile Fas ve Batı Afrika arasında kurulan dış ilişkiler sayesinde Batı Afrika'daki eğitim merkezleri tanınmaya, büyük ve ünlü hale gelmiş ve etkileri günümüze kadar devam etmiştir.

Anahtar Kelimeler

Din Eğitimi, Batı Afrika, Eğitim-Öğretim, İslam Dini, Eğitim kurumları, Mâlîki Mezhebi

المقدمة

قبل أن نشرح في هذا الموضوع فإنه ينبغي أن نلقي الضوء على جغرافية المنطقة التي سيدور، حوله البحث؛ إذ يعطي القارئ الأفق ويوسع له الباب إلى فهم الموضوع؛ لأن فهم جغرافية المنطقة يساعده على فهم الموضوع بشكل جيد

نبذة عن جغرافية غرب إفريقيا (السودان الغربي)

تقع غرب أفريقيا في أراضي ما بين خطي العرض 4° و 16° شمال خط الاستواء في الجنوب وخط الدول 13° و 17° غرب خط غرينتش، وتحدها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الشرق الكاميرون وبحيرة تشاد، ومن الجنوب خليج غينيا ومن الغرب المحيط الأطلسي. وهذه المنطقة تبلغ مساحتها إلى حوالي سبعة ملايين كيلومتر مربع، وقد شهدت هذه المنطقة أكبر ممالك و امبراطوريات منها امبراطورية غانا، امبراطورية مالي، امبراطورية صونغاي، امبراطورية صنهاجة، امبراطورية صوصو، امبراطورية كانم وبرنو والسودان الغربي تمثل اليوم عدة جمهوريات من دول غرب أفريقيا وهي: مالي، النيجر، السينغال، غامبيا، غينيا بيساو، غينيا كوناكري، سيراليون، ليبيريا، ساحل العاج، بوركينا فاسو، طوغو، بنين، نيجريا، وموريتانيا (المغلي، 2012، ص.258)

وهناك مسميات أخرى لهذه المنطقة كتكرورو وهذه التسمية اختلف فيه المؤرخون شتى منهم يرجعهم إلى الزنوج، ومنهم من قال أنهم يرجع أصلهم إلى المغرب والأخرون حاولوا أن يفارقوا بين السودان الغربي وبلاد التكرور والذي مال إلى هذا هو صاحب الكتاب مسالك الأبحار، لفضل الله العمير عندما تحدث عن رحلة سلطان مانسا موسى ورحلته المشهورة للحج في قوله " ويغلب على سلطان مالي عند أهل مصر سلطان التكرور ولو سمع هذا أنفا منه ، لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته، والأحب إليه أن يقال صاحب مالي لأن الإقليم الأكبر وهو به أشهر. (عمران 2011، ص.30-34)

والمتدقق في كلام هذه يفهم أن التكرور إنما فقط مدينة أو إقليم من أقاليم مملكة مالي كغيرها من بقية أقاليمه وهذا ما يميل إليه أنا كالباحث وهذا أقرب إلى صواب. والبعض يرجع هذا المصطلح إلى الذين كانوا يتوجهون للحج مرات تلو أخرى فسموهم بالتكرور لتدليل على تنقية قلوبهم وأعمالهم نتيجة تكرارهم للحج عدة مرات. واختلط فيه البعض كابن خلدون في كتابه بين المعنيين الجغرافي والبشري، فيقول وقد وطن التكرور في منطقتين أحدهما كوكو والأخرى غرب كوكو وبرتيلي يعرفه تعريفا جغرافياً ، والذي يمكن أن نختم هذا الباب به هو تعريف صاحب الكتاب انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور لمحمد بللو بن عثمان بن، فودي حيث قال " أعلم أن هذا الاسم الذي هو بلاد التكرور هو الإقليم الغربي من الجنوب السودان على ما فهمنا من تعبيرهم في التاريخ وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر وحبشة (بلو، 1996، ص.47) ومن القبائل الذين استوطنوا في بلاد السودان الغربي/ أو غرب أفريقيا) كثيرة منها على سبيل المثال: قبائل المانديجو (الماندي، المالك، مانكا، أو مانديجا) وقبائل الصونغاي، قبائل الصوصو، وموشي، والهوسا، وقبائل الولوف، وقبائل اليوربا والفولانيون، وقبائل الطوارق الذين أصلهم من البيض الذين أسسوا مدينة تنبكت، وقيل أنهم من طارق بن زياد.

فإن مما سبق ذكره الآن نستنتج منه أن السبب الرئيسي في نشأة المذهب وانتشاره في إفريقية، هي هذه الرحلات العلمية لأولئك الطلبة العلم وعودتهم إلى بلادهم والصلات التجارية من شمال إلى غرب أفريقيا خاصة جيني، غاو وتنبكت ، ثم قيام دولة المرابطين، والجاليات التي كانت منتشرة في هذه البلدان، المكاتب التعليمية والمرسلات العلمية بين علماء بغداد وعلماء هذه البلدان خاصة في القيروان وغرب أفريقيا

الحياة العلمية والثقافية في السودان الغرب

السودان الغربي من أهم المناطق التي انتشرت فيها الثقافة الإسلامية منذ فجر الاسلام وكانت حية بروح العليمة خاصة في مدينة تنبكت وجني وتكرور إذ كان تنبكت ذلك الوقت المركز الاول ثقافياً تجارياً بين الأفارقة والمغاربة والقاهرة خاصة ومن أنحاء العالم عامة. وعندما التقى كانكون موسى في رحلته للحج بالفقيه المصري ثعلب في قاهرة ودار بينهما تبادل الخبرات حول موضوع خدمة المذهب وتطوره كدعم الدراسة والتدريس، والكتب العلمية، كنقل مؤلفات كبار علماء المالكية إلى مالي وتدريبه والكتب الدراسية، فطلب منه شرح مختصر أبي الحسن الطليبي في الفقه المالكي، ففعل وعاد بالكتاب إلى السودان. وكذا بناء المساجد كمسجد سانكوري وجني والجوامع في أرضي تنبكت ثم خدمته للعلماء إذ كان يحب العلم والعلماء فأمنهم من ظلم سوني علي. فاشترى الكتب الأمهات عند عودته من الحج إلى تنبكت لكون تنبكت مركز علمية ثقافية في ذلك الوقت إذ عاش بها جل علماء ذلك العصر (كعت، 2014، ص.180)

واهتمام هؤلاء العلماء بالعلم والمعرفة وانشاء كثير من المراكز التعليمية، والحلقات الدراسية التي امتلأت بالطلاب من كل فج عميق ويؤكد هذا صاحب تاريخ الفتاش، محمود كعت بأنه كان يوجد في تنبكت في عهد أسكيا محمد الكبير مائة وخمسون مدرسة لتعليم الصبيان خاصة في القرآن الكريم (كعت، 2014، ص.180) وكان من خزائن المدينة امتلأت بالكتب العلمية والثقافية التي كان لكل منسا موسى ومن جازوا بعده كأساكي، أسكيا محمد و داوود وغيرهم كانوا مهتمين بالكتب العلمية والمكاتب فكان قد لا تجد في مسجد أو بيت عالم من العلماء إلا به مكتبة سواء كبيرة كانت أم صغيرة. ثم كان لأسكيا محمد دوراً كبيراً في اهتمامه بالعلماء الذين هربوا من سوني علي بير فضمن حياتهم وأمنهم من الخوف وتهديد القتل من قبل سوني علي بير.

الكتاتيب

إذا رجعنا إلى تاريخ التعليم في العصور القديمة كالعصور اليونانية والرومانية الهدف الأساسي في التعليم كان تزويد إعداده ليتحلى ويرتفع درجته من بين أقرانه كما كان الحال في الروم والديانات المسيحية نجد أن التعليم في ثقافتهم كان هو أعداد مسيحي صحيح وكانوا يرون أن هذا لا يتم بتعليمه ببعض العادات والتقاليد والآراء فحسب، بل كانوا يريدون استعدادهم نفسياً ولا يتم هذا إلا إذا عاش الطلاب في بيئة اجتماعية وتحت راية واحدة يلازمونها زمناً طويلاً حتى تنزل منهم التعاليم المنشودة منزلة الطبع. وهذا كما أشرت إليه هو السر معيشة التلاميذ معيشة داخلية واحدة. (Durkheim 2018 ص 1-2) والمتدقق في التاريخ يرى أن لتعاليم في هذه الثقافات والحضارات القديمة يتبين له ما يلي:

- أن المدارس المسيحية هي التي حلت محل التعليم في اليونانية والرومانية

- والتعليم في المراكز الكنيسة كانت المعيشة فيها معيشة داخلية واحدة لغرضهم مقصود وراء ذلك.

- أن التعليم في هذه المدارس لم تكن عامة لجميع أفراد الشعب بل اقتصر على طبقة كهنوت ومن هنا يظهر مزية تعليم الاسلام منذ فجر الاسلام التعليم الإسلامي يقصد جميع أفراد وطبقات الشعب رجالاً ونساء أطفالاً شيوخاً فقيراً وغنياً.

- والغرض من هذه التعاليم هو التأثير في شخصية التلاميذ وطبعها بالطابع المسيحي واستعدادهم لحياة الرهينة.

وكون الكتاتيب لم تظهر إلا بعد الفتوحات الإسلامية لا يمكننا أن نقول أن التعليم في الكتاتيب أخذ المسلمون من الفرس والروم مباشرة إذ ظهوره في زمن الفتوحات دليل ظاهر على ذلك. فبدائية من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصور الفتوحات نرى أن التعليم يختلف عما كان عليه في الفرس والروم والديانات المسيحية خاصة الكتاتيب، كان عامة لجميع أفراد الشعب ولم يكن من اللازم فقط وجود هذه التعاليم في المساجد بل كان الأماكن الأخرى والسبب الرئيسي في نقل التعليم من المساجد إلى هذه المراكز التعليمية هو عبث الصبيان الصغار الذين لا يحتفظون من النجاسة إذ جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المساجد، فظهرت الكتاتيب منفصلة عن المساجد، وخاصة بتعليم الصبيان

والكتاب من أقدم نظام تعليم الاسلامي في غرب افريقيا والعالم الإسلامي عامة منذ نعومة الاسلامي خاصة في المذهب المالكي بعد الفتوحات الإسلامية، والكتاب يقصد به المؤسسة التعليمية في المراحل الأولى التعليمية الابتدائية في تربية المسلمين وتعليمهم علوم الشرعية وعلوم اللغة العربية، "وهو عبارة عن مكان تلقى العلوم من الشيخ أو المعلم للكبار والصغار معاً. والمواد التعليمية في هذه الكتاتيب يمكن تقسيمها إلى المواد الدينية الفقهية والمواد اللغوية والأدبية. (فؤاد، 1955، ص75)

إضافة إلى ما قلنا فإن التعليم في الكتاتيب لم يكن فقط في هذه الفترات بل كان قديماً موجود حتى قبل الإسلام وهذا لا يمكن التغفل عنه ولو كان ظهر وانتشر في الإسلام أكثر .

أ- فمن المواد الدينية الفقهية التي كانت تدرس فيها التعليم القرآن قراءة وحفظاً وكذلك الكتب الفقهية في المذهب المالكي كالأخضري، والرسالة، والعثماوي، المقدمة العزبية. والتعليم القرآن يبدأ فيه الطالب بقراءة القرآن نظراً حتى إلى ختمه، وبعد الختم يمكن له أن ينتقل إلى مرحلة جديدة وهي دراسة الكتب الفقهية واللغوية الأدبية، ثم مرحلة التفسير للقرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة المحلية لتلك البلاد، والتفسير كان عبارة عن الأخذ عن شيخ مشافهة سورة تلوى أخرى حتى إلى نهايته.

ويرى بعض الباحثين أن التعليم القرآن كانت على نوعين هما:

النوع الأول: أن يتعلم الصبيان فيه قراءة القرآن فقط من غير حفظ، والنوع الثاني: يحفظون فيه القرآن، والنوع الأول هو أكثر انتشاراً في هذه البلدان (ويبدراغو، 1696، ص). كمالى وبوركينا فاسو، وغينيا كوناكري، ساحل العاج، وسينغال. والعمر المحدد لمن يلتحق به من الصبيان كان خمس سنوات.

ب- أما المواد الدراسية اللغوية والأدبية فكان تدرس في هذه الكتاتيب المتعلقة السبع الشعرية، وقصائد ابن المهيب في المدائح النبوية والمقامات الحرير، والبردة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن هذه المواد الدراسية أشار إليها ابن سحنون في كتابه أنه مما يمكن تعليمه للصبيان الخطابة، والنحو، والخط، والشعر، والحساب وغيرها، أنه كانوا يدرسون الصبيان بها في المرحلة الابتدائية في الكتاتيب. والذي قرأ كل من تاريخ السودان، والتاريخ الفتاش يرى أنهم يشيرون

إلى أهمية الكتاب في السودان الغربي ومراحل التعليم فيها وكذلك العلماء والمواد الدراسية فيها . وكان الكتاب من ضمن مراحل التعليم في السودان الغربي وكان الكتاب لحفظ القرآن ومعرفة قواعد اللغة العربية ، وفي مقابل ذلك كان أهل التلاميذ يدفعون للفقهاء ما يسمى حق الأرباع، « مال كانوا يدفعونه للفقهاء أستاذ كالمعاش أو الأجرة» وكانت المرحلة الثانية في المساجد وكان الطالب يتحصل على مجموعة من الدروس الخاصة بلغة العربية، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة يتعمق الطالب في العلوم الشرعية اللغوية على يد العلماء المشهود لهم بالتمكين وتتوج بالحصول على الإجازة (كعت، 2014، ص.180)

و من هنا يمكننا لنا القول أن هذا التعليم من أنماط التعليم المشهور في المنطقة يلتحق بها الذكور والإناث، وغالبا التعليم في الكتاتيب يكون في المساجد أو تحت الشجرة أو المبانى . فيقول المؤرخ الإنجليزي تريمينجهم «Trimingham» في كتابه التاريخ الإسلامي في غرب أفريقيا « إن من أبرز خصائص انتشار الإسلام في غرب أفريقيا والعالم أجمع التعليم المسجدي أو التعليم في المساجد... وهذا النوع من التعليم اتبعه سكان كانم منذ اعتناقهم لهذا الدين . وأضف إلى ذلك ما استشهد به الرحالة ابن بطوطة عندما زار مالي حيث قال " لقد عجبت بشدة عنايتهم بحفظ القرآن، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه، ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون . فقلت ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل! حتى يحفظوا القرآن" (ابن بطوطة، 1988، ص.780-790) وهذا دليل ظاهر على قلنا.

المساجد

فالتعليم المسجدي هو من أقدم أنواع التعليم منذ فجر الإسلام من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصور الحديث ؛ إذ أنه ينتقل من عصر إلى عصر، وهو من الأساليب التي تعود عليه الشعب الأفريقي خاصة والعالم الإسلامي عامة في تعليم الصبيان والكبار في أمور الدين، والأمور الأساسية اللازمة التي يجب معرفتها لكل مسلم من الأمور الدين كالطهارة، وصلاة ، والصيام والزكاة، والحج.

ومن المعلوم في تاريخ المساجد في الإسلام، أن المسجد كان يؤدي دوره الديني والاجتماعي والتربوي، والسياسي، فكانت القرارات الحاسمة تُتخذ في المسجد، إلى جانب الكراسي العلمية في جميع صنوف المعرفة، واستمر المسجد يؤدي هذه الأدوار حتى ابتلي العالم الإسلامي بالاستعمار الغربي الذي حاول بكل قواه أن يحجز دور المسجد، ويقصر نطاق مهامه على الصلوات المفروضة.

وقد كانت المساجد في عهد الأساكي في السودان الغربي تقوم بدورها الديني والتربوي والتعليمي، وذلك بفضل عناية هؤلاء الأساكي بها، حيث خصصوا رواتب معينة للعلماء الذين يدرسون فيها، وللأئمة والخطباء والوعاظ. ومن أهم المساجد التي اشتهرت بنشر الثقافة الإسلامية العربية، ما يأتي

المسجد الكبير في "تنبكت"1 أو مسجد جنغيربير2

نشأت تنبكت على يد الطوارق ... وكانت مدينة ثقافية علمية ومعرفية ومركز تجارية في شمال وغرب أفريقيا خاصة وأنحاء العالم بصفة عامة ؛ إذ كانت التجار يأتون إليها من كل فج عميق خاصة في مجال تجارة الذهب والملح، بما أنه كانت فيها المراكز التعليمية بنوا فيها مسجد الجامع على حسب الإمكان ثم المسجد سنكري وثبتت عمارته في القرن التاسع واكتمل البناء في الاتصال والالتام في أواسط القرن العاشر في مدة أسكيا داوود أبين أسكيا الحاج محمد الكبير الأب. هذا المسجد هو من أقدم وأكبر مساجد في تنبكت ويرجع تاريخ بناءه الأول إلى القرن السادس الهجري وتكرر بناءه مرة ثانية في القرن الثامن الهجري، وذلك في عهد السلطان مملكة مالي مانسا موسى. فعندما عاد من حجة كلف بهذه المهمة المهندس أبو الاسحاق الساحلي الأندلسي(747هـ/1346م .فهذا المسجد بني من الحجارة والجير . وللمسجد خمسة أبواب مختلفة من الحجم . وأول من قام بالإمامة كما أشار إليه السعدي " فأول من تولى إمامته الفقهاء السودانيون في دولة أهل مالي وفي طائفة من دولة الطوارق (السعدي، 1981، ص)

1- تنبكت، أسسها الطوارق المسلمون فأصبحت عاصمة الثقافة الإسلامية بمسجدها سانكوري، كثر بها الفقهاء والطلاب في القرن الرابع عشر الميلادي. غرب أفريقيا، شجع المسلمون الناس على الحصول على التعليم، وقاموا ببناء العديد من المدارس ومراكز التعليم. وكان أحد المراكز الرئيسية هي مدينة تنبكتو التجارية، على نهر النيجر. وخلال فترة حكم مملكتي مالي وسونغاي، أصبحت تمبكتو مشهورة بمجتمعها من العلماء المسلمين. وظلت هذه المدينة مركزا هاما حتى غزت المغرب مملكة سونغاي في القرن السادس عشر. وقد بنيت عدة جامعات في تمبكتو، أكثرها شهرة كانت جامعة سانكوري . في ذلك الوقت، كانت واحدة من مراكز التعليم الكبرى في العالم أجمع

2 التسمية لاسم المسجد أو كتابته اختلف فيه فالبعض أطلقوا عليه " جانكوبير ومنهم جانجوبير على الجامع الكبير ، وجنغير بير تعني في لغة أهل السنغاي " المسجد الكبير

فمن بعض الأئمة والعلماء لهذا المسجد على سبيل المثال: الفقيه القاضي كاتب موسى (991هـ/1583) 40 سنة في الإمامة، سيدي عبد الله البلبالي كان إماماً في نهاية دولة الطوارق وهو كان أول بيضاء صلى بالناس، ثم الفقيه أبو القاسم التواني (935هـ/1518) سكن المسجد تولى الإمامة والتدريس، علي الجزولي، عثمان بن الحسن التيشيشي، صديق بن محمد (977هـ/1569) وغيرهم من الأئمة والأساتذة الذين تولوا التدريس في هذا المسجد التاريخي الكبير. ومدة الإمامة لبعض هذه الأئمة كانت تتراوح ما بين 12، 18، 24، 40 سنة وبعضهم حتى إلى وفاتهم وهم الأكثرين وآخرون لظروف خاصة.

ولم يكن مسجد دجينغاربير مجرد مسجد للصلاة، وعن ذلك يقول الشيخ محامدو كان مسجد دجينغاربير الكلية الرئيسية من ثلاث كليات شكلت معا جامعة تمبكتوتو، إلى جانب مسجد سانكوري وسيدي يحيى. وكانت هذه الجامعة تسع 25 ألف طالب، و180 فصلا دراسيا، وقد امتلأت بالأساتذة الذين كان مانسا موسى يدفع لهم رواتب، وكان منهم الفقهاء والشعراء والأطباء والقضاة والمترجمون والإداريون والمهندسون واللغويون والفلكيون والرياضيون وغيرهم، وقد بلغت أخبار ثراء وسخاء مانسا موسى أطراف الدنيا، فانجذب إليه علماء المسلمين من الأندلس والمغرب ومصر وجزيرة العرب.

جامع سانكوري

وهو من أشهر المساجد في بلاد السودان الغربي، خاصة في مدينة تنبكت وهو يوجد في شمال البلاد. بنته السيدة الفاضلة الغنية فاطمة بنت أحمد من قبيلة الأغلاي في عهد دولة مالي وذلك سنة 716هـ/1325م (السعدي، 1981، ص.63). وأعيد بناه في عهد الصونغاي وتم تجديده من قبل القاضي عاقب بن محمود 989هـ/1581م عند عودته من الحج. وقيل أنه أخذ القياس من الكعبة طولا وعرضا؛ ليبنى هذا المسجد في تنبكت. ويمكن نستشهد بقول محمود كعت حيث قال "أخبرني بعض المشايخ لأنه لما حج وأراد الانصراف والقفول إلى تنبكت استأذن خدم الكعبة المشرفة أن يخدم الكعبة ويكبله بقدمه طولا وعرضا فأذنوا له وكاله بالحبل طولا وعرضا. وجاء بالحبل المكياج فلما أراد بناء المسجد السنكوري أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرصة التي أراد بناءه فبنى الأوتاد على جهتها الأربع وبنى عليها وعلى مقدار الكعبة ما زادت وما ناقصت عليها شيء (كعت، 2014، ص.121 122) وهذا المسجد لما له من الأهمية؛ أنه فاق غيره من المساجد كجامع الكبير، ومسجد سيدي يحيى.

وأصبح جامعة إسلامية يقصدها طلاب العلم من كل طرف من بلاد السودان داخلها وخارجها. قد ضاهى في مكانته العلمية جامعة الأزهر في مصر وجامع القيروان بالمغرب، وأسندت الإمامة والتدريس فيه لعديد من الفقهاء الذين كان لهم الباءة في العلم والتقوى والورع، فمنهم على سبيل المثال: أبو البركات الفقيه محمود بن عمر بن محمد آقيت الذي تولى الإمامة بإذن من القاضي، ثم الإمام انداغ محمد بن الفقيه المختار النحوي، ثم عبد الرحمن ابن الفقيه محمود، كان محافظا عليها إلى مرضه، وبعد ذلك عين محمد بن محمد كرى الذي بقي إماماً حتى وفاته وكان آخر إمام في عهد مملكة صونغاي. والفقيه القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج في أواخر دولة مالي كما أشار إليه صاحب تاريخ السودان أنه هو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعاليم في جامع السنكوري بعد صلاة العصر وبعد صلاة العشاء (السعدي، 1981، ص.63)

ومن العلماء تنبكت أبو عبد الله محمد بن عثمان من شيوخ العلم والمعرفة وقال فيه أحمد بابا أنه هو أول من خدم العلم من أجداده وهو جد جدّي، والشيخ من بن محمد وابن أبي بكرى شيخ الشيوخ هو الذي كان إمام مسجد سنكوري في ذلك الوقت.

وكانت هذه الجامعة تتكون من عدة مدارس صغيرة ومستقلة، كل مدرسة يديرها إمام أو باحث. وكان أئمة سانكوري يحظون بالاحترام والتقدير في جميع أنحاء العالم. يدرس الطلاب في سانكوري تحت إمام واحد. وتشمل دراستهم الأساسية كل من دورة تعلم القرآن، والدراسات الإسلامية، والقانون، والأدب. وبعد إتقان هذه المواد، يمكن للطلاب المضي قدماً للدراسة في مجال آخر ومعين.

وكان هناك عدة أنواع متاحة من الدورات، إذ يمكنهم تعلم الطب والجراحة. ويمكنهم دراسة علم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء. أو يمكنهم تناول الفلسفة أو الجغرافيا أو الفن أو التاريخ. وكانت أعلى درجة يمكن للطلاب الحصول عليها في سنكور هي فترة دراسة من عشر سنوات. وأثناء التخرج، كان الطلاب يرتدون غطاء من القماش يسمى عمامة. وكانت العمامة رمزاً للضوء الإلهي، والحكمة، والمعرفة، والأدب الأخلاقي المميز (علاء الدين السيدي، 2021)

مسجد سيدي يحيى التادليسي

وهو أيضا من أقدم المساجد والمراكز التعليمية في تنبكت، أسس في زمن الطوارق في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ليكون مكانا لصلوات الخمس والجمعة معا. وتم تجديد انشاءه من قبل الشيخ محمد نسن الفقيه المغربي الصنهاجي، فهدمه ولم يبق منه إلا الأجزاء الأولية الأساسية وأعاد من جديد ثم عين الشيخ سيدي يحيى التادليسي إماماً ومدرسا ومواعظ فيه حتى إلى وفاته سنة 1481هـ/1886م.

وهذا المسجد هو أصغر من مسجد الجامع الكبير ومسجد سانكوري؛ وجدد هذا المسجد مرة أخرى في عهد السلطان أسكيا داود، على يد القاضي العاقب بن محمود آقيت، وذلك سنة 976هـ/1568 (مقاديم ، 1018، ص.53) وبعد سيد يحيى تولى عدة أشخاص الإمامة منهم محمد بن أبي بكر الونكري، الذي كان يعرف ببيغ، استمر بالتدريس فيه إلى أن توفي سنة 1008هـ/1599م وجاء بعده ابنه محمود بن محمد بن محمود الونكري ثم الإمام أحمد بن سعيد الذي توفي سنة 1040هـ/1630م.

مسجد جامع جيني

وهو من الأوائل المساجد التي بني في جني في القرن السادس/ الثاني عشر الميلادي بناه السلطان كمبر عندما اشتهر إسلامه. والقصة كالتالي: هو أنه عندما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة، فحصل أربعة آلاف، ومائتان عالم، فأسلم على أيديهم وأمرهم بأن يدعوا الله تعالى ثلاث دعوات لمدينته وهو: إن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً وعسراً أن يبدلها الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه ذلك، وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة حتى في ذلك أيديهم؛ لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص ثمن فيربحون به" (السعدي، 2014، ص.30)

. وهذه القصة دليل على سعة حركة التجارة في جني ومصادقية الملك في إسلامه إذ أجاب الله كل دعواته. والمهندس الذي بناه هو عربي يدعى ملوم ادريس، وقيل أنه هو الذي علم أهل جيني كيفية بناء منازلهم وكيف يزخرفونها على شكل عربي إسلامي.

وبعد إسلام هذا الملك ذهب إلى الحج في الأراضي المقدسة، وانغرس نفسه في طلب العلم والمعرفة وأحضر معه كثير من الكتب، وبدأ يشجع العلم والتعليم، ومنح خيرات كثيرة للمعلمين والمؤذنين والأئمة؛ لأنه كان يعطيهم أرزاقا واسعا في كل سنة كالمعيشة. وهدم بيته وجعله مسجداً لأداء الصلاة (مبروك الدالي، 2001)، وهذه الثقافة (هدم البيوت أو تخلص منها وجعلها مسجداً) مازال موجودة في مالي حالياً فكثير من أصحاب الأسر يتخلصون من بيوتهم ويجعلونها وقفا في سبيل الله .

وظل إلى أن جاء مملكة سنغاي في وقت حكمها الأسكيا محمد الكبير وأعاد بناءه على نحو مساجد الجامعة. ومن الذين تولوا الإمامة فيه محمد بن ساقو الونكري، وابنه فقيه فودي بن محمد، ثم محمود بن أبي بكر الونكري، ثم ابن أحمد، ثم أشرف بن القاضي عمر شرف وغيرهم.

مسجد غاو

غاو (جاو) وهي كانت عاصمة مملكة الصونغاي بعد سقوط امبراطورية مالي وهي قريبة من تنبكت وهي أيضاً تقع في مالي حالياً. لما جاء مانسا موسى من الحج مع ابراهيم الساحلي ليبنى له المساجد في دولته ، فالمساجد التي بناه الملك يصل عددها إلى اثنا عشر مسجداً كما يشير إليه المصادر الموثوقة

وشهرة هذا المسجد ليس كسابقه من المساجد لكن كان له دور في تعليم ونشر الثقافة الإسلامية في المدينة، خاصة في عهد الأساكي صونغاي ؛ لأن الملك اتخذ في ذلك الوقت غاو عاصمة لصونغاي. وهذا المسجد - كما سبق ذكره- هو الذي بناه المهندس ابراهيم الساحلي بأمر من السلطان منسا موسى عندما جاء من حجه، وهو أول مسجد بناه في مدينة غاو.

وجل هذه المساجد كانت تشبه بعضهم البعض في كيفية البناء والتصاميم إذ بناها مهندس واحد³ كانت تقيم على أعمدة من الحجارة ، وغالباً يكون في وسطها أقواس الدائرية تكتب عليها الآيات القرآنية. ومن شدة ازدهار الحركة التجارية والثقافية الموجودة في المدينة تطورت حركات التعليم بين أهل البلاد والتجار والجاليات المغربية حتى وجد بعض المساجد والحلقات الدراسية خارج المدينة ومن أشهر المساجد في غاو المسجد الكبير الذي بناه السلطان أسكيا محمد الكبير، فقام السلطان أسكيا داود في عهده وصرف عليه جل أموال الدولة؛ وذلك من شدة حرصه وحبه لدين واتباع حسن السبيل الذين كان عليه أجداده السابقين من الملوك والسلاطين . ومن بعض الأئمة الذين قاموا بالتدريس فيه، (ابن بطوطة، ص.204) الفقيه محمد

الفلاحي مغربي الأصل في القرن الثامن الهجري، وهو أول من تولى الإمامة والتدريس فيه والفقير محمد اندي، صالح جور، محمد جغت، محمد (مقاديم، 2018، ص55)

فقد وجد في غرب إفريقيا/ السودان الغربي/ مدارس علمية خاصة في مملكة سنغاي، كان لها دور فعال في نشر الثقافة الإسلامية فيها إلا أن جل الكتاب والمؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ البلاد لم يتطرق إليها بالتفصيل إلا عندما يتحدثون عن أستاذ، أو خريج، أو حدث تاريخي حدث فيها ثم يمرون مروراً كراماً، وهذا لا يمنع أن ألقى الضوء على هذه المدارس بالتفصيل قدر المستطاع لأنها ثبتت بأدلة قطعية وجودها ولا يمكن النسيان عنها لما كانت لها تأثير في حياة الشعب السوداني وقتئذ. ومن هذه المدارس مايلي:

جامعة سانكوري

كما تحدثت عن المسجد الجامع سانكوري فكان في جانب المسجد جامعة عريقة " جامعة سانكوري" مشهورة علمياً كان يقصدها الطلاب من جميع أنحاء العالم في ذلك الوقت خاصة من إفريقيا والدول المغاربية في عاصمة الثقافة تنبكت، هذه الجامعة بما أنه كانت مع المسجد في نفس المكان حصل فيه الخلط عند بعض المؤرخين إذ لم يفرق بين المسجد الجامع الكبير وبين جامعته.

أنشأها العالم عاقب بن محمود بن عمر قاضي القضاة في تنبكت والسيدة الثرية (كما سبق) هي التي بنت المسجد وقامت بتمويله. فكانت مركزاً تعليمياً إذ بلغ عدد الطلاب فيها إلى 25 ألف طالب بينما عدد سكان المنطقة (تنبكت) كانت بمسابة مائة ألف نسمة وهذا في القرن الثاني عشر الميلادي. والجامعة كانت تستقبل الطلاب المحليين والأجانب الدوليين؛ حيث كان التعليم والإقامة فيها مجاناً، وأحياناً كانت المنحة تعطى لبعض الطلاب والطلبات المحتاجين من الأموال النقدية لمساعدتهم.

وكانت للجامعة كليات مستقلة يدير كلا منها رئيس معين وكانت المحاضرات تلقى فيها على ساحات المفتوحة. وكانت القرآن وعلومه والدراسات الإسلامية واللغوية والأدب والقانون والطب والجراحة والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والفن واللسانيات (أي علوم اللغويات) هي المنهج والمواد الدراسية فيها.

ومن شروط التحاق والقبول بهذه الجامعة حفظ القرآن، وإتقان اللغة العربية، والإمام بالمعلومات العامة. وأعلى درجة العلمية والحصول عليها كانت قد تستغرق عشر سنين وفي نهاية الدراسة كانت يجب على الطالب كتابة الأطروحة العلمية العالمية كانوا يسمونها "رسالة". والطلاب في الطب والحقوق كان لا يسمح لهم التوظيف في العمل والممارسة المهنية إلا إذا حصل على تصريح لهذه المهنة تدل على أهليته وأحقيته لها.

ولم يكن هناك فرق كبير بين حفلة تخرج ذلك الوقت واليوم؛ إذ كان الطلاب يلبسون في الحفلات التخرج عمامة تقليدية جامعية يرمز الحكمة والعلم والافتداء بالشيخ والأستاذ المشرف. ولكي يكون الطالب رقيقاً للأستاذة قد يصل مدة دراسته وممارسته إلى عشرين سنة فيمنحه شهادة تسمى الإجازة العلمية ويقصد بها أن لحاملها حق التدريس وأنه يحوز له ما يجوز لأستاذه (المدني، 2016، ص24).

ومن المدارس العلمية في غرب إفريقيا في عهد صونغاي مدرسة محمود بن عمر قاضي تنبكت (ت955هـ) التي كانت موجودة في تنبكت. ومؤسسها كانت من أصحاب العلم أسرته أسرة علم ومعرفة لأنه تعاقب من ذريته جمع غفير من العلماء الأجلاء منهم مدرسون، فضاة، وأئمة. هي من المراكز التعليمية التي تخرج منها جل كوادر مملكة سنغاي في غرب إفريقيا منهم، الفقيه أحمد بن أحمد والد أحمد بابا، ومحمود بغيغ أستاذ أحمد بابا التنبكي، والفقيه أحمد بن سعيد، اشتهرت بنشاطاتها التعليمية خاصة في التفسير والفقه وتخرج منها علماء كثيراً من تنبكت.

ومن المدارس التي أنشأها المؤسس ذلك بأمر قاض تنبكت محمود بن عمر، مدرسة منيع العلم ومنهم من يسميها بمدرسة "كلسخ" في تنبكت وهي مدرسة القرآن والتفسير كمدرسته الأولى واحتلت هذه المدرسة مكانة اجتماعية عالية خاصة في إقامة المناسبات، العيد، والاجتماعات، وقرأه الأشعار في الأيام الخاصة كأيام رمضان واليلة القدر وغيرها.

ومن المدارس العلمية اللغوية في عهد صونغاي مدرسة الفقيه أبو بكر ابن أحمد أقيت (ت991هـ) في قلب تنبكت، وهي كانت مدرسة لغوية خاصة في مجال النحو. والحاصلون على الشهادة من هذه المدرسة جلم تعلموا في نفس البلد وتخرج من مدارسها؛ إذ يمكن اعتباره في وقتنا الحالي كالتخرج من الثانوية. وتعلم في هذه المدرسة كثير من الطلاب العلم كأحمد بابا وأمثاله (أحمد بابا، ص102)

مدرسة القاضي مودب محمد الكابوي شيخ الشيوخ.

وهذه المدرسة هي التي كانت تقع في حومة سانكوري بتنتكت ، ووصف مؤسسها بشيخ الشيوخ بما بلغ فيه من العلم والمعرفة والتقوى والصلاح ، وهي مشهورة بكثرة طلابها؛ حيث كانت الطلاب يأتون إليها من جميع أنحاء السودان وخارجها كدول المغربية، وكان من خريجها علماء أجلاء مجتهدون اشتهروا في ميدان العلم والمعرفة في بلاد السودان منهم الفقيه عمر ابن محمد أقيت، الشيخ سيد يحيى التادليسي (السعدي، -47 48)

ومن المدارس التي زاغ صيتها في صونغاوي في تلك الفترة مدرسة الجد محمد أفع محمود بن الحاج المتوكل، وهي من المدارس التي اشتهرت بتدريس السير والتاريخ الاسلامي بصفة عامة خاصة كتب المالكية ولصاحب هذه المدرسة إمام بعلم التاريخ وله دراية ورواية بتاريخ السودان الغربي على الوجه الخصوص دولتي متي (جالو، 1513، ص.174) وكان من طلابها محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش إذ ذكر كثير من أصحابه الذين تخرجوا معهم من هذه المدرسة في كتابه. وكذا مدرسة أبي زيد عبد الرحمن بن محمود حيث اشتهر صاحبه بالتدريس والمواظ والإرشاد، فكان يزدحم عليه الناس في حلقاته في التدريس والاستماع إلى مواظته وإرشاداته الدينية الفقهية.

من المراكز الحضارية في هذه الفترة (مملكة مالي وصونغاوي) في غرب أفريقيا مدينة "جيني" معهد جيني احتلت هذا المعهد مكان شبيهه في تنكبت (معهد سانكوري) فكثرت طلابها وتلاميذها حتى وصل عددهم إلى نحو ألف طالب في ذلك الوقت وهي اشتهرت بتدريس العلوم الطبية وعمليات الجراحية و العلاج بالأدوية الطبيعية والأعشاب (جون جوزيف، 1984) كما شهدت بلاد الهوسا كذلك مدارس منها مدرسة كتاسينا التي يرجع تاريخ بناءها إلى المنتصف القرن التاسع الهجري حيث بنيت بتوجيه عبد الكريم المغيلي فسكن بها قام بالتدريس فيها ومن أساتذة الذين قاموا بالتدريس فيها الامام عبد الرحمن السيوطي.

وكذا مدرسة "كان" هذه المدرسة أقامها سلطان "كانو" وقد جلس الامام المغيلي في التدريس فيها ما يصل الى عشرين سنة فأخرج جمع غفير من الطلاب العلم وكانت من ثمرات هذه المدرسة تأسيس مدارس علمية أخرى في السودان الغربي. وكان يدرس فيها العلوم الدينية والحضارية العلمية كالطب وغيره. ومن الأساتذة الذين اشتغلوا بالتدريس فيها الشيخ عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري وكذا الفاسي (موجز تاريخ نيجريا، ص.80-130)

ومن المدارس العلمية في بلاد الهوسا مدرسة الشيخ جغتيتي ؛ إذ أدت دورا مهما في مجال الثقافة الاسلامية وفي نشر الإسلام في مملكة سنغاوي ودرست فيها أنواع شتى من الفنون العلمية الدينية كانت من مناهجها أنها تدرس فيها الكتب الأمهات الفقهية المالكية كالمدة، والعنبيية، ومختصر خليل والرسالة لابن أبي زيد القيرواني وغيرها. وهذه المدرسة كان المستوى فيها عالية في ساحة التعليم.

ومن المدارس العلمية التي اشتهرت في بلاد السودان في هذه الفترة مدارس علمية في جنج- وهي من ولاية جيني- منها:

مدرسة مورمغ كنكي وهو من أصل كاي الموجود في جمهورية مالي حالياً ، ومدرسة الامام صديق بن محمد تغلي؛ إذ الأولى اشتهرت بكثرة عدد طلابها في ميدان التعليم في جيني، وكذا مدرسة الحاج سالم سوارى فكان له مجهودات كثيرة في نشر العلم والتعليم إذ تخرج على يده علماء كثيرون من غرب أفريقيا (مجلة دراسات أفريقيا، عدد 3، ص 30-34)

المدارس التكوينية المهنية

وهي من أنواع المدارس العلمية التي اشتهر غرب أفريقيا بها في مجال الصناعات التقليدية اليدوية. من هذه المدارس على سبيل المثل

مدرسة صناعة النسيج ؛ حيث نالت مرتبة عالية في ميدان الصناعة خاصة عهد مملكة سنغاوي في أنحاء البلاد السودان لأن الطلاب كانوا يتنافسون على تعليمه وتعلمه خاصة عهد ملوك الأسكيين وكانت منتجات هذه المدرسة الصناعية منتشرة في مجال التجارة؛ إذ كانت تصدر إلى كل غاو، تنبكت، مالي، بلاد الهوسا وحتى خارج أفريقيا.

ومن المدارس المهنية التي كانت تشتغل في صناعة الأدوات التي يصنع منها السفن والأسلحة كالخشب والتعدين في بلاد السودان في هذا الوقت مدرسة إقليم غوير؛ لأن أهلها تفوقوا بأنواع مختلفة لصناعة النسيج والجلود على غيرهم فكان يكفيهم ما ينتجون من هذه الصناعات.

وينقل لنا الوزان عنهم أنهم " الناس متحضرون جدا على العموم فيهم عدد كبير من نساجي القماش وصناعي الجلود الذين يصنعون احذية كالتي كان يمتعلها الرومان في القديم ، و آلات الموسيقى و ادوات أخرى كالأسلحة وتصدر هذه الأحذية الى تمبكتو ، و غاو " وغيرهما من مدن سنغاوي (الوزان، ص.170)

و قد وجدت في مدينة داغة مدرسة لتعليم فنون المعمارية كفن البناء المزدحمة بطلابها.

وقيل أن أسكيا محمد الكبير لما استولى على المدينة أخذ من بناء ما يصل الى خمسمائة من هذه المدرسة البنائية منهم معلمون وطلاب، ثم ذهب بأربعمائة منهم إلى غاو عاصمة مملكته وأرسل مائة منهم إلى أخيه حسن كزارعون . وهم الذين بنوا مدينة تندرم خلال ثلاثة أشهر فقط ثم قسموهم في بقية أنحاء البلاد (جالو، 1513، ص.182) وكان يطلق على رئيسهم كرمغ .

وفي مدينة تنبكت فقد وجد فيها أكثر من عشرين عاملين اشتغلوا في الخياطة . وعدد طلبة لكل واحد منهم كان يصل ما بين خمسين إلى سبعين. ولا يتولى التدريس فيها إلا المعلمين المتخصصين، والمعلم فيها يسمى بالشيخ الرئيس . (كعت، ص.131)

المكتبات

وكان من نتائج هذه الحركات العلمية في هذه الأسر العلمية أن تركوا لنا مكتبات غنية بالكتب والمخطوطات النادرة التي يصعب الحصول عليها إلا عن طريقهم . وما زالت تلك بعض الكتب والمخطوطات موجودة في السودان خاصة في تنبكت وجيني وغاو وغيرها من الحواضر العلمية في ذلك الوقت. ومن هذه المكتبات على سبيل المثال

مكتبة أسرة أندغ محمد

هذه المكتبة كانت مليئة بالكتب العلمية والثقافية في مجالات شتى من المخطوطات العربية والسودانية المحلية التي تجمعت لدى أسرة أقيمت وذلك بسبب المصاهرة التي اندمج بين الأسرتين آل أقيمت وآل أندغ، وكان الفقيه أحمد بن عمر أقيمت من رموز العلمية وكانت المصاهرة سببا لوجود بعض موروثات آل أندغ محمد من الكتب لسيطهم الفقيه أحمد بن عمر أقيمت إضافة إلى مكتبة أسرتهم ؛ مما تمكنهم من جمع مكتبة علمية زاخرة بصفوف المعارف ، وقد تحدث عن هذا حفيده الشيخ أحمد بابا التنبكي بقوله: " وترك نحو سبع مئة مجلد أخذ عن جده لأمه الفقيه أندغ محمد عن خاله الفقيه المختار النحوي و غيرهما (بابا، 1989)

وبما أن أهل أندغ من شدة حرصهم العلمية وبروزهم فيه فقد حرصوا على الكتب والمخطوطات النادرة وإيداعها في خزاناتهم الخاصة وتوارثوها فيما بينهم وكان هذا عن نتيجة الثروة العلمية عن طريق استنساخ الكتب وشراؤها من التجار الذين كانوا يفضلون تجارة الكتب على غيرها من السلعة والبضائع التجارية إذ كانت تفوق على غيرها من السلع . ووصف هذا المؤرخ الوزان في كتابه عندما زار المنطقة في القرن العاشر قدم معلومات تفصيلية حول مكتبات خاصة كمكتبة آل أندغ محمد؛ إذ أنه لا يتمكن تصور بروز هذه الأسرة من العلم والعلماء والمؤلفين الكبار من هذه الأسرة دون تملكهم لمكتبات بصفوف الكتب و نوادر المخطوطات.

مكتبة أسكيا محمد ومكتبة أسكيا داود وبنه أسكيا محمد بان في عهد صونغاي في عاصمة مملكته

لقد كان لهذه المكتبات دوراً علمياً وسياسياً إذ أنشأها السلاطين أسكيا محمد الكبير وابنه أسكيا داود وغيرهما، وهذه المكتبات ممكن اعتبارها اليوم كالمكتبة الوطنية الرسمية خاصة في ميدان التعليم ؛ لان الأبن أسكيا داود هو الذي اعتنى بها بعد أبيه وهو أول من اتخذ خزائن الكتب العامة في عهده إذ كانت الكتبة فخمة ورفيعة وكان له مجموعة من الكتب العلمية. ومن شدة حرصه على العلم وحبه للعلماء إنه صرف جميع أموال الدولة على العلم والكتب والعلماء ؛ حيث وزع على المعلمين وكبار العلماء والطلاب والمكتبات العامة إذ كان يقوم بذلك بنفسه وكان من عاداته أنه يحب شراء الكتب والمخطوطات النادرة الجديدة التي تصل إلى غرب إفريقيا في ذلك الوقت ويضعها في مكتبته.

ومن شدة اهتمام أسكيا داود للعلم والمكتبات قال عنه صاحب تاريخ الفتاش، محمود كعت "كان أسكيا داود سلطاناً مهيباً فصيحا خليفاً لرئاسة، كريما جواداً... وهو أول من اتخذ خذائن المال، حتى خزائن الكتب، وله نساخا ينسخون له كتباً، وربما يهدي به العلماء " (كعت، 2014، ص.94)

وكذا مكتبة أسكيا محمد بان، وهو ابن أسكيا داود، هو أيضا كان من الذين اهتموا بالعلم والعلماء وإنشاء المكتبات؛ إذ كان له مكتبة خاصة ومجلس من النساخ الذين يكتبون، وبجانب هذه المكتبات وجدت كذلك خزانات الكتب الخاصة في بيوت العلماء والأثرياء والشخصيات البارزة.

ومن بعض خصائص هذه المكتبات أن أصحابها كانوا يعيرون الكتب لطلبة العلم بدون شرط أو قيد من القيود لتقتهم لطلاب العلم واحترامهم للعلم والعلماء وحتى إن لم يكونوا يعرفون الطالب فلا يمنع ذلك أن يعيرونهم الكتب طلباً لرضى الله سبحانه وتعالى فقال أحمد بابا في هذه الصدد " وجئت يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في داره، فأطاني كل ما ظفر به منها (بابا، 1989) و إضافة إلى هذا فقد وجد كذلك بعض الأثرياء ذوي المكانة

العالية في المجتمع السوداني اتخذوا بيوتهم مجالساً علمياً خاصة (ميغا، 2008، ص.32) وافتتحوها لطلاب العلم وكانو حريصين على طلب العلم و العلماء والمربين والقضاة الذين سيقومون بتعليم الناس في أسرهم وبيان الأحكام الشرعية وتنقيف الناس حول دينهم وديانهم (سالمي، ص.67)

وما زالت آثار و نتائج هذه الحركات العلمية في هذه البيوتات العلمية في جمهورية مالي إلى يومنا هذا إذ قامت دولة مالي بإنشاء مراكز علمية ومكتبات لحفظ هذه الكتب والمخطوطات التي كانت في هذه الأسر، وما زالت تلك بعض المكتبات والمخطوطات العلمية في مالي حالياً.

وقد أشار بعض الباحثين كمحمود زبير الباحث المؤرخ المالي إلى أن في هذه المكتبات كثيرة من المخطوطات التي تصل إلى نحو 950 ألف مخطوطة و أن منها 100 ألف توجد في تنبكت فقط. وكما أشرت إليه أنفا إلى أنها ورثت من جد إلى أب وإلى الإبن حتى إلى يومنا هذا. وبعض هذه المخطوطات العلمية انتشرت في كل غاوا، تنبكت، كيدال، موريتانيا، مغرب، نيجر وللأسف الشديد حتى وصل البعض إلى فرنسا وإسبانيا وذلك أثر فترة الاستعمارية الفرنسية والإسبانية والانجليزية لدول افريقيا.

وقد بذل الجهد بعض الباحثين في الجمع والبحث عن هذه المخطوطات كعبد القادر حيدرا فوصل عدده إلى 2000 مخطوطة في قرية واحدة فقط. وحتى بعض التقارير أشارت إلى وجود نحو 300 ألف مخطوطة متداولة في مدينة تنبكت والمناطق المجاورة لها في بلاد السودان. كما كانت تنبكت مدينة علمية ومركز تجارية ثقافية في القرن السادس عشر الميلادي، إذ أنشأ بها المكتبات كما تطرقت إلى ذلك سواء من المكتبات العامة كمكتبة أسكيا محمد الكبير ومكتبة أسكيا داود والمكتبات الخاصة الأسرية في البيوت وهي الكثيرة وقد تحدثت عنها تفصيلاً .

فمن هنا نشير إلى أنه بذل الجهود الدولية أو الجماعية أو الفردية لإعادة تشكيل هذه المكتبات وجمع هذه الكنوز الدفينة المتفرقة في المنطقة بحمايتها، وتصنيفها وترميمها، منها على سبيل المثال:

مكتبة أحمد بابا التنبكي (معهد أحمد بابا للتعليم العالي والبحوث الإسلامية)

أسس من قبل حكومة مالي هذه المكتبة في تنبكت عام 1967م نسبة إلى العالم الجليل النحرير أحمد بابا التنبكي وذلك نتيجة اجتماع يونسكو عام 1967م في تنبكت الذي دعوا فيه حكومة مالي إلى إنشاء هذه المكتبة لحفظ التراث العلمي الاسلامي وتم تمويل أعمال تشييده من قبل دولة الكويت. وتوجد في هذه المكتبة حالياً ما يقارب 40 ألف مخطوطة تم جمعها من قبل بعض الأشخاص المشهورين كأول رئيس المكتبة دكتور محمد زبير ومحمد حيدرا وغيرهما.

مكتبة ماما حيدرا للمخطوطات والوثائق

هذه المكتبة تم إنشائها على يد الموظف السابق في مكتبة أحمد بابا التنبكي عبد القادر حيدرا التي تضم اليوم نحو 9500 مخطوطة. ونسب المكتبة إلى أبيه ماما حيدرا الذي كرس جهد كبير في نشر الثقافة وتطوير مكتبة أسلافه. وتم وضع فهرسة هذه المكتبة بمساعدة من قبل مؤسسة الفرقان للتراث في لندن.

مكتبة تنبكت الأندلسية

تم تأسيس هذه المكتبة نظراً للعلاقات التي تربط بين أسرة كعتي وإسبانيا على يد دياي حيدرا من سلالة محمود كعتي المؤرخ التنبكي وتم افتتاحها عام 2003 تمويل الغني والسري من حكومة إسبانيا. وتوجد فيها ما يقارب 7000 مخطوطة مفهرسة بشكل جيد و مرتبة ترتيباً زمنياً. والأقدم منها يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر الميلادي لجدهم الكبير علي بن زياد.

مكتبة وانكري للمخطوطات

وهي أصغر بيوم واحد من مكتبة تنبكت الأندلسية إذ تم افتتاحها في 26 سبتمبر عام 2003 أما المكتبة تنبكت الأندلسية 26 سبتمبر عام 2003م والمشراف العام على المكتبة هو المختار بن يحيى مختار الونكري . والمكتبة تضم ما يصل إلى 3000 مخطوطة. وهي تعتمد في الأصل على مكتبة الأصلية محمد بغيغ شيخ أحمد بابا. واحتوت هذه على أعمال عدة لعلماء السودان والمغرب. وأقدم الوثيقة التاريخية فيها تعود إلى عام 1695م.

لغات و محتويات هذه المخطوطات

لا شك أن هذه المخططات من المخطوطات الإفريقية السودانية؛ إذ أنها كتب بلغات العربية والبعض منها بالمحلية الإفريقية كالفولانية والهوسا، والبربرية والعبرية، كما وجدت منها ما كتبت باللغة التركية وغيرها من اللغات.

أما فيما يتعلق بالمحتويات هذه المخططات في المكتبات قديماً وحديثاً فقد تنوع موضوعاته، وأحسن الباحث المالي عاقب تنجاً القول في هذا الصدد عندما تحدث عن هذه المخططات في مقالته "الخلفية التاريخية العلمية عن مدينة تنبكت" حيث قال: "وتشتمل هذه المكتبات على أنواع شتى من الفنون العلمية والدينية كمخطوطات القرآن الكريم، وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، التوحيد، والعقيدة، والسيرة النبوية والمديح، والتصوف، والأدعية والمأثورات، التاريخ والسياسة، والاقتصاد، وعلوم النحو واللغة، والمعاجم، ودواوين الشعر. كما تشتمل على مخطوطات في العلوم الطبيعية والفلسفة والقانون، والرياضيات، وعلوم الحساب وعلم الطب، والعلوم الغيبية كالسحر وعلوم النجوم (تاجا، 2021، ص.4)

وهذا يدل على سعة أفق العلمية الثقافية في هذه البلدان قديماً وحديثاً؛ إذ يعتبر هذه أثمار صدرت من جزور أسلافنا السابقين في الإمبراطوريات والممالك السابقة كملكة غان، مملكة مالي، ومملكة صونغاي وغيرها؛ إذ كانت هذه الإمبراطوريات مهبط علم وثقافة الإسلامية في بلاد السودان ذلك الوقت، ومركز تجارية في الذهب والملح خاصة في تنبكت وجيني وغاو وغيرها في نفس الوقت.

الحوانيت التجارية: الدكاكين التجارية

ومن المراكز التعليمية في هذه البلدان الحوانيت للتجار، كما سبق أن أشرت إلى أنه كان هذه المنطقة معروفة ومشهورة بحركة التجارية والثقافية بمكانتها الاستراتيجية، كان يقصدها التجار من المغرب والجزائر وليبيا ومصر وقيروان. فأقام بعض التجار الحوانيت لتعليمه كانوا يعلمون الناس ويقدمون دروساً في الأعمال المهنية واليدوية كالتجارة، والزراعة، وصيد الأسماك، والانشاءات، وصناعة الأحذية، والخياطة والملاحة للطلاب الذين يريدون تعليم الجُزف والمهن. (مدني، 2021، 2016/04/24. تاريخ زيارة موقع 2021/03/07)

قصور السلاطين والأمراء

من المراكز التعليمية في السودان الغربي في هذا الوقت بيوت السلاطين والأمراء، وهم بذلك من شدة حرصهم للعلم والعلماء ورغبتهم في خدمة العلم والعلماء؛ لأنه "وكان من عادات الحكام والأمراء واهنساء المسلمين اتخاذ مجالس علمية خاصة يدعون إليها كبار العلماء والقضاة والأدباء والشعراء والمفكرين والمربين، وهذه المجالس كانت دورية في قصورهم، وكان يشهد هذه المجالس كبار المسؤولين في الدولة ويدعى إليها كبار العلماء الذين يزورون البلاد من البلاد المجاورة، أو الذين يأتون من بلاد بعيدة (جالو، 1996، ص.188)

وهذه الظاهرة التعليمية بدأت منذ زمن سلطان مالي مانسا موسى خاصة عندما جاء من الأرض المقدسة من الحج واستمر كذلك إلى مملكة سنغاي خاصة عهد الأساكين (السلطان أسكيا محمد الكبير وابنه أسكيا داود وأحفاده) لأنهم أنفسهم كانوا من العلماء والأدباء والشعراء كما سبق ذكره أنهم كانوا يزعمون الطلاب في المجالس العلمية؛ فشاركوا في حلقات علماء بلدهم والذين جاؤا من خارج البلاد. وكان لكل سلطان أو حاكم من الحكام مجلس للعلم في ديوانه (جالو، 1996، ص.188)

وكان الحكام من الأساكين يواصلون عمليات التعليم في مدن الكبرى في السودان الغربي خاصة في مملكة سنغاي؛ إذ أخذوا العلم في كل من مدينة تنبكت، غاو، جيني، وبلاد الهوسا بعد دراستهم في المراحل الابتدائية في مدارسهم المحلية أو المكاتب؛ لهذا كان سلاطين أسكيين كلهم مثقفون وأدباء.

وأبنائهم الذين جاءوا من بعده نهضوا نفس المنهج، بل كانوا أشد منهم من حب العلم والعلماء وخدمة العلم والمدارس والمكتبات، وأقرب المثال على ذلك ما سبق ذكره من أسكيا محمد الكبير و أسكيا داود حيث قيل أنه صرف جميع أموال الدولة على العلم وخدمتهم (كعت، 2014، ص.94)

وكذا أمراء المدن التابعة لولايتهم كأمير كانوا، محمد رمغا، وأمير زرايا محمد رابو، وأمير كتاسينا "كوارو"؛ كل هذه المدن كانت تحت إمبراطورية سانغاي بعضهم توجد حالياً في السنغال ودول أخرى من دول غرب إفريقيا؛ حيث كان قد وكل إليهم مهمة القيام بإحياء الحركة العلمية والفكرية والثقافية في أنحاء البلاد. هكذا كانت الحركة العلمية في قصور السلاطين والأمراء في مملكة مالي وصونغاي.

الخاتمة

ويمكن أن نستخلص مما سبق من الحديث عن المراكز التعليمية ابتداء من الكتاتيب والمساجد والمدارس والمكتبات والدرر وبيوت العلماء العلمية؛ يتضح لنا مدى قوة هذا الفقه المالكي في بلاد السودان وسيادته فيها؛ إذ إن جل العلماء والمشايخ وحتى الحكام كانوا من المالكيين وكانوا يفضلون المالكية على غيرها من المذاهب الفقهية. ويمكن نختم بأن المراكز التعليمية وتلك الكتب و المكتبات تتوارثها الأجيال جيل من بعد جيل،(عنتره،2010، ص.255) حتى وفر لديهم مجموعة كبيرة من الكتب التراثية والفقهية مما جعل لديهم رصيد متنوع من التراث الفكري والثقافي شهم في دفع الحركة العلمية والفكرية والثقافية داخل بلاد السودان الغربي. وقد أثرت هذه الحركات في المشاركة في الحياة الفكرية مما أتاح لهم دوراً كبيراً في الإنتاج العلمي الثقافي في ساحة الفقهية و أثروا به المكتبة العربية والإفريقية بالعديد من التأليف المتنوعة وكان الملوك والسلاطين في هذا الوقت يحبون العلم والعلماء إذ كانوا أنفسهم يزعمون الطلاب في المدارس والمجالس العلمية كملوك الأساكي . فقد كان أسكيا محمد الكبير في مملكة سنغاي أول من قام بعقد المجالس العلمية في قصره، فكان يدعو العلماء من خارج البلاد إلى جانبه استعانة بهم بجانب علماء المجلس ، خاصة في أخذ قرارات الدولة إذ كانت الجوانب الدينية مهما جداً لهم يحرصون عليها كل الحرص

KAYNAKÇA

- Fouad،A. (1955) *Al-Ohani, İslam'da Eğitim veya Al-Qabesi'nin Görüşüne Göre Eğitim*, Kahire, Dar Al-Kutub Al-Arabiya
- Billu, M. (1996) *İnfaku'l Meysur fi tarih biladi't-Takrur*, Kahire, *Menşurât meahetu'd-Dirasaati'l İfrikiyye*, Rabat, mili yayın evi,
- Çelebi, A. (19989) *İslam'da Eğitim ve Öğretim Tarihi*, DamlaYayınevi Ahmed Çelebi, *İslam'da Eğitim ve Öğretim Tarihi*, Yayın evi
- el-Bertelli, M. (1981) *Fethi's-Şukûr fi marifeti a'yan ulemai't-Takrur*, Beyrur, Daru'l Garb'il İslami yayınları,
- el-Sa'di. A. (1981).*Tarihü's- Sudan*, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient yayınları
- Ahmed B. (1989) *Nilu'l-İbtihac Bitatrizi'l Dibac*,Libiya, vaaz ve davet yayınevi
- Ahmed, B. , (2000.) *Mi'raci's Su'ud, Ecvibetü Ahmed Baba Havle'l İstirkak*, Mağrip,Afrika çalışmaları yayınevi
- Fuat el-Evhâni, A. , (1955) *et-Terbiye fi'l İslam evi't-Talim fi Ra'i el-Kabisi el-Kahire*, Dar İhya el-Kutubi'l Arabiyye yayınevi
- Hâdi el-Mebruk (2001)..*Memleketu Mali el-İslamiyyeh ve Alakatuha mea'l Mağrib ve Libya mine'l karni 13-15*, Safahat min tarih'il alakatı'l arabiyyeti'l ifrikiyye, Mektebetu'l Vataniyyeh- Tıbaat'ul Ula yayınevi,
- Medeni, H. (2021).*Camiatu Sankuri*, Mecelletu Daratu'l Marife Tarih<https://daratalmarifah.wordpress.com> 24.04.2016 Erişim Tarihi,

Joseph, J.(1984) *Islam in the Memluks of the Black African Empire*, s. 84, Mukhtar Al-Suwaifi tarafından çevrildi, The Egypt Lübnan yayın evi

Ka'et, M. (2014) *Tarihu 'l Fettaş*, Dimaşka suriye, Muaseset şunun el islamiyye yayın evi,

M Abdu'l-Hamid,M.(2018) *el-Medaris 'ul İlmiyye ve devruha es-Siyasi ves-Sekafi fi 's-Sudani 'l Garbi Mali ve Songhay*, Doktora Tezi, Cezayir Haran Üniversitesi yayınları.

Miga, M. (2000) Hamid Kanan *Cuhûdu 'l Ulema el-Efarikah fi Neşri 'ş-Sekafeti 'l İslamiyye fi Garbi İfrikiya Nemuzecen*, Mecelletu Kıraat İfrikiya yayınevi.

Diallo, A. (1993.) *el-Hayatu 'l İlmiyye fi devleti Songhay*, Memleketu'l Arabiyyeti's-Suudiyye yayınevi,

Ouedraogo, A.(1996) *L'enseignement de l'arabe et de l'islam en pays Mossi* books.google.com. yayınları,.

Sahar Anterah, A. (2010) *Fukeha el-Mâlikiyyeh ve Asaruhum fi Müctema'us-Sudan fi ahdi Mali ve Songhay*, Kahire, Mektebetu's-Sekâfe ed-Diniyye

Umran, K. , (2011) *el-Edebu 'l-Arabi*, Kazablanka, İSESCO yayınları